الخطاب التعليمي عند مولوي
(كتاب "فيه مافيه" نموذجاً)

الدكتورة ندى حسّون*

الملخّص

هذا البحث محاولة لتقديم مولوي من خلال كتابه "فيه مافيه"، الكتاب الذي يتمتّع بأهمّيّة خاصّة من حيث كونه كتب في مرحلة كثيرة الهيجان من حياة مولانا، ومن حيث كونه آخر كتبه، كما أنّ قراءته ذات فائدة عظيمة في كشف بعض أسرار المثنوي. الكتاب عبارة عن مجموعة من مقالات مولانا وتقريراته التي دوّنت بعد وفاته الذي تطرح فيه مسائل في موضوعات مختلفة جدّاً تتدرّج من تفسير القرآن إلى مسائل اليوم السياسيّة، حيث يبتعد البحث بالتدريج عن الموضوع الأصليّ إلى مايتداعى ويجدّ من المعاني والأحوال والخواطر على مولانا. ويتجلّى الكلام عن لحن المناظرة والمحادثة الحميمة، إذ إنّه موجّه إلى محبّيه وفي مناسبات مختلفة كمجلس استقبال أمير أو وزير جاء لزيارته. هناك قسم من "فيه مافيه" يمكن أن يعدّ درساً للحكمة الإلهيّة وقسم آخر منه اختصّ بالمواعظ الحسنة وقسم ثالث فيه عقد مولانا الحوار بينه وبين أرباب الفرق المختلفة. ويتّبع أسلوباً يراوح بين الاستدلال المباشر بالآيات والأحاديث نتيجة انشغاله الشخصيّ وأسرته بحرفة الوعظ والتذكير، وبين

* قسم اللغة الفارسيّة وآدابها – كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق

تقديم التأويلات العرفانيّة في ظلّ النصوص الشرعيّة حيث يرى للقرآن معنـــى باطنـــاً وراء شكله الظاهريّ، وفي الوقت نفسه لايرى النفوذ في باطن الآية مجوّزاً للعـــدول عن ظاهرها. كما يراوح أسلوبه بين استخدام التمثيل والحكايـــات المتعلّقـــة بـــأحوال الأنبياء والأولياء والملوك والخلفاء والعامّة ممّا يجعل الكتاب مصدراً مـــن مـــصادر ثقافة العامّة أو كتب الحكاية، وبين استخدام التشبيه والقياس العقليّ حيث يفصل هـــذه القياسات التمثيليّة عن الظاهر والهيئة التعليميّة، ويخرجها بصورة يجعل فيها المخاطب يرى مصداق هذه التمثيلات بوضوح ويخطّئ ما يتوهّمه ويصل إلى مراد المتكلّم دون أن يتنبّه على أنّ المتكلّم قد يرفض معتقده.

لمحة عن مولوي وآثاره:

ولد جلال الدين محمّد مولوي الروميّ في بلخ عام 604 هـ.ق وتوفّي في قونية ببلاد الروم [1]عام 672 هـ [2]حيث رحل إليها مع والده بهاء الدين الملقّب بسلطان العلماء الذي كان من كبار علماء بلخ عام 607 هـ.ق . سافر مولانا إلى حلب لمتابعة تحصيل العلوم الظاهريّة، ثمّ إلى دمشق وأقام فيها سبع سنوات[3]، ثمّ عاد إلى قونية ليدرّس العلوم الدينيّة.

كانت سيرة مولانا قد اختلطت بالروايات والخرافات إلى حدّ بعيد، إلاّ أنّه ليس من الصعب أن نرسم الخطوط الأساسيّة لشخصيّته. فإنّ بهاء الدين ولد الابن الأكبر له وسبهسالار وأفلاكي وكلاً من مريديه قد كتبوا مطالب غاية في الأهمّيّة عن جزئيّات حياته المادّيّة والمعنويّة، إذْ يمكننا عن طريق معرفة الوجوه المشتركة بينها ومقارنتها بآثاره أن نقترب من التاريخ الواقعيّ لحياته بما تلزم معرفته للإحاطة بشخصيّته العرفانيّة.

كان الشيخ بهاء الدين صاحب "مسند الإرشاد والهداية" في بلخ، ونظراً إلى أنّه من أهل سلوك طريق العرفان فإنّ علماء الظاهر وأهل الجدل قد سعوا به لدى السلطان محمّد خوارزم شاه وأثاروا الصخب حوله، فرحل عن بلخ وكان جلال الدين في الثانية عشرة من عمره.

---

1 بلاد الروم هي تركيّة الحاليّة أيّام حكم السلاجقة الذين حكموا بلاد الرّوم.

2 تاريخ ادبيات ايران (از فردوسى تاسعدى) نيمه دوم، ادوارد براون، ترجمة غلامحسين صدرى افشار، ط 4، انتشارات مروارید، طهران، 1386 هـ.ش، ص 200، 201.

3 تاريخ ادب پارسى (مكتب ها , دوره ها , سبک ها وانواع ادبى)، د. تميم دارى , مركز مطالعات فرهنگى – بين المللى , ط1 , منشورات الهدى، طهران , 1379 هـ.ش، ص 211.

كان بهاء الدين طبقاً للرسم المعهود بين العرفاء إذا نزل بلدة سأل عن أكابر تلك الديار وسعى لزيارتهم، فمن الثابت أنّه زار الشيخ العطّار في نيشابور، وهناك عاين الشيخ العطّار أمارة الفتوح والعظمة في وجه الطفل جلال الدين فأهدى إليه نسخة من مثنويّه "اسرار نامه"[4]. واستقرّ المقام ببهاء ولد في أرض الروم واشتغل بالتدريس والإرشاد حتى وفاته.

حين توفي بهاء الدين كان مولانا قد أحاط بعلوم زمانه، فكان فقيهاً متشرّعاً وحكيماً بارعاً. كان برهان الدين المحقّق الترمذي قد حضر إلى قونية، واشتغل بإرشاد مولانا مدّة تسع سنوات أوقفه فيها على المعارف الباطنيّة ولطائف أرباب الطريقة [5]. وبعد وفاة الترمذيّ سافر مولانا إلى حلب لمتابعة تحصيل العلوم الظاهريّة، ثمّ إلى دمشق وأقام فيها سبع سنوات التقى خلالها الشيخ محيي الدين بن عربيّ [6]، ثمّ عاد إلى قونية ليدرّس العلوم الدينيّة [7]. وفي قونية أقام مولانا علاقات محبّة قويّة مع الأكابر والعلماء، إلى أن التقى شمس تبريزي الذي طرح عليه أسئلة[8] جعلته يقع بشدّة تحت تأثيره، وكان هذا اللقاء أهمّ منعطف في حياته على الإطلاق [9]

4 المرجع السابق، ص 210 ؛ تاريخ ادبيات ايران، د. ذبيح الله صفا، خلاصه از محمّد ترابي، ط 16، انتشارات فردوسى 1384 هـ.ش، جلد سوّم ، ص94-95.

5 تاريخ ادب پارسى (مكتب ها , دوره ها , سبک ها وانواع ادبى) ، ص 211.

6 نفسه.

7 نفسه؛ گزيده ى غزليات مولانا، انتخاب وتوضيح د. سيروس شميسا، ط2، انتشارات فردوس، طهران، 1383، ص 10-11؛ مولوى نامه (مولوى چه مى‌گويد) جلال الدين همايى، ط 6، مؤسسه نشر هما، طهران، 1366 هـ.ش،21/1.

8 اسطرلاب حقّ (گزيده ى فيه مافيه)، انتخاب وتوضيح دكتر محمد على موحد، انتشارات سخن، تهران، 1375 ، مقدمه، ص8 .

9 شمس تبريزى، محمد علي موحد، انتشارات طرح نو، طهران، 1375، ص 108 ومابعدها.

كان مولوي من نوابغ عالم الأدب ومن مفكّري العالم العظماء وقدوة العارفين وأهل التحقيق والمجاهدة والرياضة، كما كان أستاذاً في النظم والنثر الفارسيّين ذا لسان فصيح وقدرة قلّ نظيرها في بيان المعاني الصعبة العرفانيّة والفلسفيّة بلغة أدبيّة بسيطة[10]. آثاره المنظومة عبارة عن: المثنوي المعنويّ، الرباعيّات، ديوان شمس تبريزي أو الديوان الكبير أو الغزليّات؛ أمّا آثاره المنثورة فهي: مقدّمات دفاتر المثنوي الستّة المنثورة والعناوين التي كتبت نثراً والمتناثرة في المثنوي التي لو جمعناها معاً لكانت رسالة قائمة بذاتها، والمكتوبات ورسائل مولانا التي هي في متناول اليد والتي أكثر مخاطبيها هم الأمراء والحكّام وأصحاب المناصب التنفيذيّة في قونية وماحولها، ومجموعة المجالس السبعة، التي فيها نماذج من المواعظ المنبريّة لمولانا، وفي النهاية مجموعة "فيه مافيه".

عُرِف مولانا من خلال المثنوي وديوان شمس والغزليّات، ولعلّ المثنوي هو الذي أوصل شهرته إلى جميع أنحاء العالم بما جاء فيه من خطاب للخاصّ والعامّ، وبما كتب عليه من شروح وخلاصات وحواشٍ.

عرف مولانا- على الأكثر - من خلال شعره، لذا فإنّ هذا البحث محاولة لتقديمه من خلال أحد الآثار النثريّة التي احتوت مضامين عميقة قيّمة في العشق والعرفان والتعليم وغيرها، وبالتحديد من خلال كتاب " فيه مافيه " الذي يتمتّع بأهمّيّة خاصّة من حيث كونه كتب في مرحلة كثيرة الاضطراب من حياة مولانا، وكان آخر كتبه، كما أنّ قراءته ذات فائدة عظيمة في كشف بعض أسرار المثنوي الذي هو أهمّ أثر فارسيّ كتب عنه في العالم على الإطلاق.

10 مختصرى در تاريخ تحول نظم ونثر پارسى، د. ذبيح الله صفا، ط15، منشورات ققنوس، طهران، 1377 هـ.ش، ص 56.

تعريف بكتاب " فيه مافيه":

الكتاب مجموعة من مقالات مولانا وتقريراته التي دوّنت بعد وفاتــه، وحــرّرت بالتدريج بيد بهاء الدين أو غيره من المريدين، وهو كتاب متوسط الحجم يقع في 235 صفحة. أمّا عبارة " فيه مافيه " التي تعنون هذه المقالات فيبدو أنّها أطلقــت علــى الكتاب بعد وفاته ، وهذا ماذهب إليه بديع الزمان فروزانفر وعبد البــاقي گلپينــارلى واتّبعهما في ذلك ذبيح الله صفا، فهذا الاسم غير موجود في بعض النــسخ القديمــة، وعوضاً عنه قُدّمَت المجموعة تحت اسم " الأسرار الإلهيّة " أو " الأسرار الجلاليّــة " [11]. ويرى فروزانفر[12] أنّ تسمية " فيه مافيه " مقتبسة من أشعار الشيخ الأكبر محيــي الدين بن عربي وقد وجد مريدو مولانا وأتباعه هذا التعبير مناسباً للمقالات فــأطلقوه عليها. فقد أورد الشيخ هذا التعبير في الفتوحات المكّيّة فقال:

كتــــــاب فيــــــه مافيــــــه بــــــديع فــــــي معانيــــــه
إذا عاينــــــــت مافيــــــــه وجــــــدت الــــــدرّ يحويــــــه [13]

هذا الكتاب كباقي آثار مولانا ليس له نسق أو ترتيب منطقيّ وليس مرتّباً بفصول واضحة وإنما تطرح فيه مسائل من جانب مولانا أو من كلمات الكبار أمثال المحقّــق الترمذي وسنائي وبهاء الدين والد مولانا أو شخص مجهول بعنوان (قــال أحــدهم)، وذلك في موضوعات مختلفة جدّاً تتدرّج من تفسير القرآن إلى مسائل اليوم السياسيّة، حيث يبتعد البحث بالتدريج عن الموضوع الأصليّ إلى مايتداعى ويجدّ مــن المعــاني والأحوال والخواطر على مولانا.

---

11 اسطرلاب حق، مقدمه، ص24.

12 فيه مافيه، تصحيح فروزانفر، انتشارات امير كبير، طهران، 1362 هــ.ش، المقدمة، ص يب

13 الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، طبعة بولاق، 777/2.

ويتجلّى الكلام عن لحن المناظرة والمحادثة الحميمة، فهو موجّه إلى محبّيه ومريديه وأحد هؤلاء المريدين (معين الدين پروانه) وزير (علاء الدين محمّد السلجوقي)، الذي كان يحضر إلى الخانقاه بإخلاص وإرادة لاستماع كلام مولانا، كما كان أحياناً يعقد مجالس السماع لمولانا وأحبابه.

نجد أنفسنا في " فيه مافيه " أمام طيف أوسع من أحوال مولانا وأطواره ؛ ففيه مطالب قيلت في حياة شمس أي في المدة بين ظهور شمس وغيبته والتي استمرّت ثلاث سنوات، وفي أماكن من الكتاب يرد اسم شمس بهذه الصورة: " سلطان العارفين شمس الدين تبريزي قدّس الله سرّه " ممّا يحكي عن وفاته. بعض أقسام الكتاب فيها آثار من حياة صلاح الدين زركوب، وأقسام أخرى شرح وتفسير بعض أبيات المثنوي التي تعدّ تذكاراً من آخر أيّام عمر مولانا.

في هذا الكتاب، نجد مولانا يتكلّم في مناسبات مختلفة – وعلى الأغلب في مجلس استقبال أمير أو وزير جاء لزيارته – ولايخلو هذا الكلام في حال من الأحوال من الإشارات المهمّة واللطائف العرفانيّة، لكنّ المخاطب في هذه المقالات هو الجمع الحاضرون في المجلس، وهو على قدر فهمهم وإدراكهم.

ماجاء في هذا الكتاب تثبيت وتنقيح لبيانات مولانا الشفهيّة، وبناء عليه فإنّ الكلمات وبناء الجمل فيه حدّ وسط بين اللغة العامّيّة واللغة الفصحى، لغة بعيدة عن التكلّف مبرّأة من الزخارف الظاهريّة ممّا يعدُّ في الغالب حجاباً للمعنى. فهو عبارة عن تكرار لدعوة الأنبياء في إقليم العشق وعالم الأمن والسلام، وأسلوبه هو الأسلوب الذي أنزله الله على نبيّه محمّد (ص) وهو الحكمة والموعظة الحسنة.

أمّا المصادر الأصليّة لتعاليمه فهي: القرآن الكريم، والحديث النبويّ، وكلام الأولياء والمشايخ، وأخبار الصحابة، وحكايات الأنبياء والسلف، وأحوال الأمم الماضية التي جاءت لإلقاء العبرة في ذهن المخاطب، فضلاً عن حكايات تعليميّة

مفرحة على الأغلب ذات دلالات واضحة. أخذت بعض هذه الحكايات من كليلة ودمنة وبعضها من آثار ابن سينا، وسنائي، والعطّار، ونظامي، ومن الدراويش الذين عاشوا في قونية خلال تلك المرحلة.

هناك قسم من " فيه مافيه " يمكن أن يعدّ درساً للحكمة الإلهيّة كشف القناع عن جمال الآيات القرآنيّة ومأثور الأولياء السابقين؛ إذ يقدّم في هذا القسم تعريف المقام الإنسانيّ وأنّ الإنسان إسطرلاب أسرار الله، وأنّه إذا عرف نفسه وقف على أسرار العالمين، وشاهد سرّ الجمال الفرد في قلبه، فصار محبّاً عاشقاً وعندها يصير محبوباً معشوقاً للحقّ.

وهناك قسم آخر منه اختصّ بالمواعظ الحسنة والنصائح المؤثّرة إذ إنّ الدين النصيحة، وهنا مزج مولانا مرارة دواء النصيحة بكيمياء المحبّة فاحلوّت النصيحة وسقاها للمحتاجين في كأس التنبيهات المحرّكة للخيال.

وفي قسم ثالث حيث المناظرة أو بتعبير القرآن (الجدل بالتي هي أحسن) [14] عقد مولانا الحوار بينه وبين أرباب الفرق المختلفة، ووجّه النقد إليهم على أساس معتقداتهم.

المضامين التعليميّة العامّة في الكتاب:

يقدّم مولانا في الكتاب مسائل تعليميّة قلّما نجد نظيرها في سائر الآثار التعليميّة ودون أن يعنون فصول كتابه، بل يمكن أن نستنبطها عند القراءة والتدبّر مثل: الابتعاد عن مصاحبة المختلفين (غير المشابهين)، اجتناب الغرور، علامات العالم الحقيقيّ،الأشياء ليست كما تبدو للنظر، الجاذبيّة النوعيّة ووحدة الآمال، وجوب عدم

14 هذا التعبير مأخوذ من الآية القرآنيّة ((ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)) النحل: 125

قطع الرجاء من الحقّ، خطر مجالسة الملوك، لذّات الدنيا، انتقاد علماء الظاهر، معنى الزهد، انعكاس خلق الآدميّ وطباعه على الآخرين، إنّ التحت والفوق أمور اعتباريّة، في سبب تأخير استجابة دعاء المؤمن، الفطرة طبيب داخليّ، أمارة المعشوق، امتنان الجهلاء على الله، لزوم التأنّي والحذر من العجلة، حقيقة الصلاة، التنازع بين الروح والبدن، تفضيل الإيمان على الصلاة، نفي خلوة الأربعين وأهمّيّة نفس رجال الحقّ، ضرورة ترك الأعراض والوصول إلى الجوهر، افتضاح الرياء في الليل، لزوم كتمان الأسرار، التقسيم الثلاثي للآدميين، عذاب العرفاء بالنعمة، كلمات الله لاتنفد، حال الداعين إلى الله، الأصل هو المقصود، فضل مقام المشاهدة على الكلام، السرّ في قول العاشقين (إن شاء الله)، تعبير رؤيا الحياة، العشق وأدب آدم ووقاحة الشيطان، فراغ العارفين من تعظيم الحقّ ومعنى القرب من الله، تواضع الرسول الأكرم (ص)، نزول الكلام وغيره بقدر الظرفيّة والقابليّة، حدّ قدرة العقل، بيان السرّ في نعرة العشّاق، بيان الموانع الغيبيّة، طريقة تعليم الأنبياء وتربيتهم، بيان الوصال الذي لافراق له، سرّ شباب العارفين في عين الشيخوخة، تفسير كلمة (آدميّ)، حكم البكاء في الصلاة، أحوال العارف الذي لايتكلّم، معنى الفقر وهو العشق للكلّ، تأثير حديث الأنبياء والأولياء، التعبير عن مناصب الدنيا بالمشنقة، وحدة المؤمنين، سبب عدم الشكر، أمارة العشق، امتحان النفس، حقيقة الفكر، غلبة المشيئة الإلهيّة، عودة الخير على الخير، حال رؤساء العالم، علوّ المحبّة على سائر العبادات، لزوم استحضار المثال، بيان رابطة الآباء بالأبناء، تأثير المجالسة، مقام الأنبياء، شرط الحصول على أسرار القرآن، البدن ليس قوام الإنسان، ضرورة كظم الغيظ، مقابلة الإساءة بالإحسان، الله يمهل الغافلين... وغيرها من التعاليم التي تجذب كثيراً من المخاطبين أو تهمّهم.

أسلوب مولانا في خطابه التعليميّ:

يظهر مولانا في كتابه هذا معلّماً يسعى لإزالة غبار الجهل من قلوب السامعين أو التلاميذ وإزاحة غبار الغفلة من أمام ناظريهم؛ فنجد لهجة الكلام تنبيهاً، ولونه أخلاقيّاً تعليميّاً . في هذه التعاليم يذكر – أحياناً – مسائل كلّيّة عامّة تنبّه إليها الحكماء والفلاسفة، وأحياناً يتحدّث عن عالم المعنى ويدعو أرواح المخاطبين للتنبّه إلى المعنويّات ؛ فمخاطبوه من الخاصّة ومع ذلك يتلوّن كلامه بلون الخطابة الكلّيّة وتنعكس فيه الحكم والمواعظ العموميّة، وأحياناً هوكلام تعليميّ ذو صبغة أخصّ وكأنّه يبيّن المطالب للصوفيّة والعارفين. ويظهر مولانا مهارة خاصّة في هذا الكتاب باستخدامه التمثيلات والقصص والأمثال والحكم المتداولة في عصره. و يمكن تصنيف الطرائق التي اتّبعها لخدمة هدفه التعليميّ بمايأتي:

1- الاستدلال المباشر بالآيات والأحاديث:

يبدو تأثّر مولانا بالقرآن أكثر من أيّ شيء آخر لأنّ مبادئ المتصوّفة تنسب غالباً للقرآن، ولم يكن هذا الجوّ القرآنيّ الحاكم على الكتاب ناشئاً فقط عن تبحّره في ألفاظ هذا الكتاب المقدّس وآياته بل هو ناشئ أيضاً عن التدبّر والاستغراق المستمرّ في لطائفه، فقد نثر ألفاظ القرآن ومعانيه في كلّ مكان من الكتاب تقريباً إمّا تيمّناً وتبرّكاً أو من باب التمسّك والاستشهاد في إثبات المدّعى باقتضاء حال المخاطب والمتكلّم.

وكذلك أبدى اهتماماً بالحديث في عين كون هؤلاء المتصوّفة لايتقنون نقل الحديث كثيراً إذ يعدّون أخذه وضبطه من مقولة الاشتغال بعلم القال والعلم الرسميّ والبحثيّ.

وبشكل عامّ مايبرّر كثرة استدلال مولانا بالقرآن والحديث والإشارة إليهما هو انشغاله الشخصيّ وأسرته بحرفة الوعظ والتذكير فيما مضى. فاشتغاله بالتدريس جعل

ذهنه مشغولاً على الدوام بمعاني القرآن الكريم والحديث فضلاً عن أنّ قراءة القرآن من قبل القرّاء الحاضرين الذين كانوا يحضرون عند المنابر كانت من عادات ذلك الزمن، و بحضور الوعّاظ الذين كانوا يواظبون – هم أيضاً - على تلاوته وختمه، مع الاطّلاع على تفسير الآيات والأحكام وحكايات الأنبياء التي كان يسألهم الحاضرون في المجلس عنها أحياناً.

كان كتاب " فيه مافيه " - في اعتماده على القرآن وتفسيره - نظير تلك المجالس، كما أنّ الكثير من الأحاديث الموجودة فيه موجودة في كتب الصحاح، وماهو مطلوب فيها ليس أصل صورتها بل فوائدها الروحانيّة والإيمانيّة.

كانت المجالس الوعظيّة مشحونة بـ (قال الله وقال رسول الله) ممّا كان سبباً لازدحام العوام على المجالس ولاسيّما أنّ الواعظ كان في تفسير الآيات ونقل الأحاديث يذكر حكايات السلف والقصص اللطيفة المليئة بالعبر بهذا الشكل بالاستلهام من سؤال السائل ومضمون الآيات التي يقرؤها القارئ عند المنبر، ويفسّر قال الله وقال رسول الله بحكايات طريفة ويزيّنها بتفاسير لطيفة فيمنح مجلسه هيجاناً وحالاً [15]، وهذا مانجده في كتاب " فيه مافيه " على رغم أنّ الحاضرين في مجالسه كانوا من الخاصّة.

لجأ مولانا إلى الاستدلال المباشر بالآيات الإلهية والأحاديث النبوية لإثبات المفاهيم التي كان يقدّمها، ذلك أنّ كلام الله ورسوله أمران يوجبان التسليم التامّ، ولاشكّ في صحّتهما كالتجربة اليوميّة وأكثر. كان مولانا يطرح الأقوال الشبيهة بالمعمّيات وحلّها التي تشغل المستمع وتسحره، وهي عند أهل المنبر ميراث حلقات المتصارعين والقصّاصين القدماء، و لم يكن مفرطاً في طرح هذه المعمّيات، ولأنّه هو المتكّلم وحده كان حين يطرح المعمّى يبدأ شرحه بالقرآن أو الحديث.

15 سرّنيّ، عبد الحسين زرّين كوب، ط1، انتشارات علمى، طهران، 1364هـ.ش،341/1.

فيما يأتي نماذج من كتاب " فيه مافيه " على ماسبق قوله [16]:

يقول: " يجب ألاّ نقطع الرجاء من الحقّ فـ ((إنّه لاييأس من روح الله...)) فالرجاء رأس طريق الأمن. فإذا لم تسلك الطريق، أجل، عليك أن تحتفظ برأس الطريق. لاتقل كثر اعوجاجي. استقم، يزول كـلّ انحـراف. فالاسـتقامة عـصا موسـى، وتلـك الاعوجاجات كالأسحار. فإن ظهرت الاستقامة لفّتها جميعاً. إن أسأت فقد أسأت إلـى نفسك. وإلاّ فأين يطاله جفاؤك ؟ الطائر الذي حطّ على ذلك الغصـن وطـار تأمّـل، ماذا أزاد على الجبل وماذا أنقص منه؟ لو أنّ كلّ شيء كان كما يظهر، لمـا صـاح النبيّ مع نظره الثاقب المنير المنوّر، أن: (أرني الأشياء كما هي). إنّك تظهر الـشيء حسناً وهو في الحقيقة قبيح، وتظهره قبيحاً وهو في الحقيقة رائع. فأرنا الأشياء علـى حقيـقتها، حتّى لانقع في الحبالة، وحتّى لايدوم ضلالنا"[17].

يستشهد بقسم من آية قرآنيّة [18]على أنّ الإنسان يجب ألاّ يقطع الأمل من الله، والـسرّ في تأكيد هذه المسألة أنّ اليأس يستوجب شقاوة الإنسان والمزيد من عصيانه. كما أنّ الرجاء المطلق والاتّكاء على التقوى والعلم هي الأخرى من الكفر، والواجب أن يكون الإنسان بين الخوف والرجاء.

ثمّ يستشهد بـ (أرني الأشياء كما هي) وهو حديث ينسب للنبيّ الأكرم (ص) ولو أنّ المحقّقين العمدة لم يجدوه بهذه الصورة التي رواه بها مولانا، لكنّ مضمونه قد ورد في كتب الحديث عن الرسول، فضلاً عن أنّ أغلب كبـار العرفـان والأدب قـد أشاروا إلى مضمونه في آثارهم وفسّروه بعبارات مختلفة، ومن المستبعد أن ينـسبوه جميعاً إلى النبيّ دون أن يكون لديهم مستند في ذلك. وقد أفاد مولانا من مضمون هذا

16 النصوص التي تمّ الاستشهاد بها جميعها من ترجمة الباحثة.

17 فيه مافيه، ص 5.

18 يوسف: 87.

الحديث في أكثر من موضع في " المثنوي "، حتّى إنّه عنون بـــه موضـــوعاً كـــاملاً، وتحدّث عنه بالتفصيل [19]

ويقول في التحذير من الملوك الظالمين وخطرهم استناداً إلى الحديث النبـــويّ: (من أعان ظالماً سلّطه الله عليه):"إنّ الخطر في مجالسة الملوك ليس في قطع الرأس، فالرأس طائرة اليوم أو الغد. وإنّما الخطر من حيث إنّهم إذا تمكّنوا وقويـــت أنفاســـهم وتمثّل التنّين فيهم، فإنّ من صاحبهم وادّعى محبّتهم وقبل مالهم، لامفرّ من أن يـــتكلّم على وفقهم ويسرّ آراءهم الفاسدة في قلبه ويقبلها فلا يستطيع مخالفتها. ومن ثمّ كـــان الخطر، لأنّ الضرر سيحيق بالدين. لأنّك إذا عمّرت جانبهم فإنّ الجانب الآخر الـــذي هو الأصل سيصبح غريباً عنك. وعلى قدر توجّهك إلى ذاك الطرف، فإنّ هذا الطرف وهو المعشوق سيشيح بوجهه عنك. وعلى قدر ما تتصالح مع أهل الدنيا فإنّه يغـــضب منك: (من أعان ظالماً سلّطه الله عليه). وهذا الذي نتوجّه إليه مشمول بهـــذا الحكـــم أيضاً. فإذا توجّهت إلى ذاك الطرف فالعاقبة أنّه يسلّطه عليك " [20].

فقد وجدت هذه الفكرة في الأدب الفارسيّ حيث يقول سعدي: إنّه لايمكن الاعتماد على صحبة الملوك [21]. ويقول: إنّ الاقتراب من الملوك كســـفر البحر له طرفان: الأمـــل بالذهب والخطر على الرأس [22] في حين أنّ مولانا يقول إنّ الخطر على الرأس ليس مهمّاً لأنّ الخطر الأكبر ذلك سيؤثّر في استقلاليّة الرأي وضـــعف العقيـــدة والإيمـــان ويدعم ذلك بالحديث المذكور.

---

19 مثنوى معنوى، جلال الدين محمد مولوى رومى، الطبعة الرابعة (طبعـــة نيكلـــسون)، انتـــشارات طلوع، طهران، 1363 هـــ.ش، 925/5.

20 ص 9.

21 گلستان، سعدي شيرازي، تصحيح: غلامحـــــسين يوسفي، الطبعة الرابعة، شرة سهامي انتشارات خوارزمي، 1374 هـــ.ش، ص 171.

22 اسطرلاب حق، توضيحات، ص 185.

2-تقديم التأويلات العرفانيّة في ظلّ النصوص الشرعيّة:

يقدّم مولانا في هذا الكتاب الأفكار التعليميّة العرفانيّة في تضاعيف النصوص الشرعيّة، ولكن بتأويل عرفانيّ وطرز مأخوذ من المعنى والمفهوم المتعارف عليه . و للقرآن – من وجهة نظره – معنى باطن وراء شكله الظاهريّ، وهو في معناه يفيد منه الخاصّ والعامّ، ولكلّ طائفة منهما خطاب مختلف [23]، وبناء عليه يجب عدم النظر إلى القرآن في ظاهره فقط لأنّ هذا الطرز من التلقّي سبب للعجب والضلالة، ومن هنا لافائدة من معرفة ألفاظه دون التدبّر بمعانيه، فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً كما قال في المثنوي:

معنى قرآن ز قرآن پرس وبس [24]

ولايرى النفوذ في باطن الآية مجوّزاً للعدول عن ظاهرها، ومن هنا كان هناك تفاوت بارز بين التأويل الفلسفيّ والباطنيّ ومافي كتبه من تأويل. فكان يرى حمل نصوص الآيات على ظاهرها أصلاً، ويراها شاملة دقائق وإشارات يكشفها أرباب السلوك. وحين يحتمل الظاهر معنى كهذا يكون التأويل محموداً، وبهذا يكون تأويله أسلوب تفسير يستتر فيه الظاهر في حجاب الباطن ويظهر الباطن من وراء ستار الظاهر. وهنا نرى أنّ مولانا يرى أن أغلب المعاني الظاهريّة كائنة في مكانها، وأنّ الجمع بين المعاني الظاهريّة والباطنيّة أمر جائز، إلاّ أنّه معتقد بضرورة عدم الاقتناع بالظاهر.

من جملة ذلك أنّه يقول مبيّناً علامات العالم الحقيقيّ: " قال عليه السلام: (شرّ العلماء من زار الأمراء، وخير الأمراء من زار العلماء). نعم الأمير على باب الفقير، وبئس الفقير على باب الأمير.

---

23 سرّ نى 346/1.

24 همان.

وتصوّر الخلق هذا القول على أنّه لايجوز للعالم أن يزور الأمير، حتّى لايكون من شرّ العلماء. إلاّ أنّ معناه ليس كما ظنّوا، وإنّما يعني: أنّ شرّ العلماء من يرجو مدد الأمراء، ويكون صلاحه وسداده خوفاً منهم وبالنظر إليهم. فيحصّل العلم مبدئيّاً على نيّة: (أنّ الأمراء سصلوني ويحترموني وينصّبوني). وعليه يكون قبوله للإصلاح واستبداله الجهل بالعلم بسبب الأمراء ؛ حتّى إذا ما أصبح عالماً تأدّب خوفاً من سياستهم، وسار على نهجهم رضي أم لم يرض. وعلى أيّة حال، سواء أتاه الأمير بشخصه للزيارة أو ذهب هو لزيارة الأمير، فهو الزائر والأمير مزور"[25].

فالعبارة الأولى هي حديث نبويّ ورد في كتب الحديث مع شيء من التفاوت، والجملة الثانية من أقوال الأكابر[26].و هنا يمكن القول إنّ إحدى رسائل مولانا الأساسيّة هي تحرّر الخلق من خداع الصورة، وإنّ قسماً كبيراً من أقواله يختصّ بشرح المعاني الباطنيّة وبيان الأسرار الخفيّة خلف ستار كلام الأنبياء والأولياء. وفي هذا الحديث المذكور إمكان لأن يكون التمسّك بالمعنى الظاهريّ للحديث يفيد نوعاً من التواطؤ بين الأمير والعالم على خداع الخلق ؛ فالأمير يتظاهر بالذهاب إلى العالم ليقال إنّه محبّ للعلم، والعالم يتظاهر بعدم الذهاب إلى الأمير ليسلّم له بالتقوى. فيفسّره مولانا بأنّ معيار الحكم يتبدّل من الذهاب والإياب الظاهريّ إلى ماذا أراد العالم، أكان تعلّقه بهوى النفس أم بالله.

ويقول: " من الظلم أن تصل إلى البحر ثمّ تقنع منه بصبابة أو كوز ماء. إنّ من يصلون إلى البحر يظفرون منه بالجواهر ومئات الأشياء القيّمة. أيّ قيمة لحيازة الماء من البحر ؟ وأيّ افتخار للعقلاء في هذا ؟ وما هو حاصل عملهم؟ إنّ الدنيا حباب. وبحر الماء هذا هو بالذات علوم الأولياء، فأين جوهره ؟ إنّ هذا العالم حباب مليء

25 فيه مافيه، ص1

26 انظر حواشي وتعليقات فروزانفر، ص237.

بالزبد ولكنّه لدوران تلك الأمواج ومناسبة جيشان البحر وتحريك الأمواج، يبدو الحباب فاتناً: ((زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والخيل والمسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الدنيا)) ومادام قال (زيّن) فهو لم يكن طيّباً، بل إنّ الطبيعة فيه عارية استعيرت من مصدر آخر، مصدر مزيّف مذهّب. يعني: إنّ هذه الدنيا حباب زيف مزوّر مذهّب، نحن ذهّبناها وهكذا ((زيّن للناس))"[27].

فيفسّر مولانا الآية ((زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا)) [28]بأنّه لمّا زيّن الدنيا في عين الآدميّين فهي في ذاتها لاجمال لها ولاقدر أو منزلة، بل هي مثل حباب الزبد على بحر الرحمة الإلهيّة تبهر عيون الصغار , والدليل على أنّ نعم الدنيا حباب أنّها تمّحي في البحر وتزول في لمح البصر. وكما هو معلوم، أنّه على الرغم من أنّ بعض المفسّرين قالوا إنّ نائب الفاعل للفعل (زيّن) المبني للمجهول، هو الشيطان، فإنّ مولانا قد نسب فعل الزينة إلى الحقّ.

ويقول " ((لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله))[29] ويقول الجميع: ندخل الكعبة. ويقول البعض: إن شاء الله ندخل. أولئك الذين يستثنون عاشقون، لأنّ العاشق لايرى لنفسه تحكّماً أو اختياراً، بل يرى أنّ المتكلّم هو المعشوق. فهو يقول: إذا أراد المعشوق أدخل.

والمسجد الحرام لدى أهل الظاهر هو الكعبة التي يقصدها الناس، وهو لدى العاشقين والخواصّ هو وصال الحقّ. فهم يقولون: لو أراد الحقّ نصل إليه،

27 فيه مافيه، ص9، 10.

28 آل عمران: 14.

29 سورة الفتح: 27

وبمشاهدته يحصل لنا الشرف. أمّا أنّ المعشوق يقول: (إن شاء الله) فنادر. وحكاية ذلك غريبة، وينبغي للغريب أن يستمع إلى الحكاية الغريبة ويقدر على السماع.

إنّ لله عباداً هم معشوقون ومحبوبون، والحقّ تعالى يطلبهم، ويقوم لهم بكلّ مايجب على العاشقين ويظهره. فكما قال العاشق: إن شاء الله نصل، يقول الحقّ تعالى لهذا الغريب: إن شاء الله. هذا، ولو أنّنا انشغلنا بشرح ذلك، لفقد الأولياء الواصلون رأس الطريق. فكيف إذاً، أن يفضى بمثل هذه الأسرار والأحوال إلى الخلق ؟

ماوصل القلم إلى هنا إلاّ وقد تقصّف. فكيف لمن لايرى الجمل على المئذنة أن يرى شعرة في فم الجمل؟ " [30]

ينطلق من جزء من آية قرآنيّة لشرح مايسمّى لدى الصوفيّة " الاستثناء "والمقصود به قول المؤمنين (إن شاء الله) دائماً عند الإخبار عما يأملون تحقّقه، ودليل ذلك هو الآية /23/ من سورة الكهف. ويعدُّ مولانا الاستثناء وعي القلب لغلبة المشيئة الإلهيّة على التدابير الخلقيّة سواء أجرت على اللسان أم لم تجر [31]، وقول العشّاق (إن شاء الله) ليس من قبيل الخوف بل شاهد على العشق ودليل على فناء إرادة العاشق في إرادة المعشوق. ثمّ يؤوّل الآية التي بدأ بها بأنّ " المسجد الحرام " لدى العاشقين هو وصال الحقّ.

ويعدُّ العشق بين الله والآدميّين عقداً متقابلاً، الجذب من جهة المعشوق والجهد من جهة العاشق.

3- استخدام التمثيل والحكاية:

لم يكن تصوّف مولانا مبنيّاً على طريقة علميّة أو إيديولوجيّة معيّنة، بل كان التصوّف – من وجهة نظره – عبارة عن تكامل في عالم الحقيقة والعرفان والعشق

30 فيه مافيه، ص100.

31 مثنوى 1/ 5.

والجذبة يعطي تحقّقه في حياة الفرد رؤية بعيدة واسعة، ويضع وحدة البشر هدفاً لـــه، أو أنّ العرفان عنده نظام أخلاقيّ يجعل القبائح والمفاسد كلّها معدومة ويحــلّ محلّهــا المحاسن. [32]

وقبل كلّ شيء يجب التذكير بأنّه لم يلجأ من أجل تبليغ أفكاره إلى أيّ نــوع مــن الأدلّة المنطقيّة والنظريّات الفلسفيّة، ولايمكن أن نعثر في آثاره علــى أيّ نــوع مــن المصطلحات التي استخدمت في آثار المتصوّفة بأشكال سقيمة وأصبحت علّة مزمنــة بين الصوفيّة، وكان يرى الاصطلاحات لاتتوافق مع روح العامّة وفكرهم وبذلك فهي تعقيد لاتوضيح [33].

كان مولانا في آثاره جميعها أستاذاً في فنّ الحكاية ؛ وكان يستقي هذه الحكايات من الأمثال والحكم، وكليلة ودمنة، وآثار شعراء حكماء ومتصوّفة كسنائي والعطّــار وسعدي، وكلام الصوفيّة وقصصهم الرائجة بين العامّة، وقصص التــوراة والقــرآن، وكذلك من مشاهداته اليوميّة. [34]

كان يستخدم بعض الحكايات النابية أو البذيئة أحياناً، وببيان حكاية كهــذه كــان يجعل العامّة مخاطباً له ؛ فقد كان قبل كلّ شيء مربّياً ومعلّماً للأخلاق. لم يكن يتفــنّن في عمله على الإطلاق، وقد كانت هذه الميزة عنده ثمرة اعتراضــه علــى الفلــسفة والفلاسفة على رغم أنّ تأثير والده وبرهان الدين وشمس تبريزي فيه لايقبل الإنكار.

كان استخدام التمثيل والحكاية - بلاشك - دليل انعكاس أنــسه غيــر الطبيعــي بتجربة حياة الناس والارتباط مع طبقاتهم المختلفة مما يجعل الكتــاب مــصدراً مــن

32 مولانا جلال الدين، عبد الباقي گولپينارلى، ترجمة وتوضــيحات جعفــر ســبحاني، مؤســسه ى مطالعات وتحقيقات فرهنگى، تهران، 1363 هــ.ش، ص 273.

33 نفسه، ص274.

34 نفسه.

مصادر ثقافة العامّة أو كتب الحكاية ومصدراً لحياة الناس في ذاك العصر يحكي عن نظرة واقعيّة، وهذه محاولة ناجحة من مولانا لإبقاء كتابه في مستوى إدراك أكثر أصحابه . فالبلاغة المنبريّة تقتضي أنّ يحاول الوعّاظ والمذكّرون حفظ التفاهم مع المستمع إلى أقصى حدّ ممكن، وإضفاء الصبغة الواقعيّة على المجالس.

احتوى كتاب "فيه مافيه" على كمّ كبير جدّاً من الحكايات على رغم صغر حجمه، بعض هذه الحكايات تتعلّق بأحوال الأنبياء كالنبيّ الأكرم محمّد (ص)[35] وعيسى (ع)[36] ويوسف (ع)[37] أو الخلفاء كعمر بن الخطّاب[38] وعثمان بن عفّان[39] وغيرهما ممّن لم يذكر أسماءهم[40]، وهذه حكايات لها أصل تاريخيّ وتتضمّن عبراً ومواعظ. ومنها ما يتعلّق بشخصيّات تاريخيّة معاصرة أو قريبة من عصره كالسلطان محمود الغزنوي[41] وبرهان الدين المحقّق الترمذيّ [42] ومجد الدين أتابك [43]و الشيخ إبراهيم أحد مريدي شمس[44]، أو بالمتصوّفة وتعاليمهم وآدابهم ممّن كان لهم وجود تاريخيّ مثل بايزيد البسطامي[45] وإبراهيم بن الأدهم [46]، والشيخ محمّد سررزي [47]وغيرهم.

35 انظر ص113، 114، 142.

36 ص41، 232.

37 ص186.

38 ص 162، 218.

39 ص128.

40 ص341.

41 انظر ص 85.

42 ص15.

43 ص28..

44 ص62، 176.

45 ص148، 182.

أكثر هذه الحكايات من مقولة روايات عامّة الصوفيّة، وهي عنده وسيلة لاستحضار أذواقه ومواجيده ولاسيّما ماحصل له من ارتباطه بشمس، ومايهمّ فيها ليس ظاهر القصّة بل سرّها.

وهناك عدد كبير – أيضاً – من الحكايات عن دراويش[48] أو أشخاص مجهولين[49]، وهي – على الأغلب – مأخوذة من أخبار القصّاصين والأسواق، وتتضمّن لطائف انتقاديّة حول عادات الخلق ورسومهم، وطرز تفكير العامّة وقصر نظرهم.

وفيما يأتي بعض الأمثلة على استخدام مولانا الحكاية في خطابه التعليميّ:

- يذكر مولانا حكايات وتشبيهات كثيرة لإيضاح وجوب أخذ الغايات وترك المبادئ كأنه يريد القول : اعتبر بالنهايات والنتائج ولاتهتمّ بالحواشي والمقدّمات. فعلى سبيل المثال إذا نظم شاعر قصير النظر قصيدة طويلة في مدح أمير حتى يفوز بمكافأة ثمينة، فإنّ المعلوم دون قراءتها أنّ جميع أبياتها تعني طلب الدينار، سيّان أكان عربيّاً أم فارسيّاً. وعلى هذا القياس، إذا تعلّم شخص العرفان لايقصد الوصول إلى المعروف، وإنّما للوصول إلى المقام والشهرة وجذب المريدين، فإنّ معلوماته وأقواله وأفعاله كلّها من أجل الاسم والشهرة. وأخيراً يكون المعلوم أنّ جميع رياضاته واكتسابه العلوم وغير ذلك كانت للمصلحة. وعليه، وكما قال مولانا: فإنّ الأصل هو المقصود.

---

46 ص161-162.

47 ص40.

48 ص121، 173،

49 ص31، 32، 38، 82، 105، 183.

يقول: "وفد شاعر عربيّ على ملك. وكان الملك تركيّاً ولايعرف الفارسيّة أيضاً. ونظم الشاعر فيه قصيدة غرّاء بالعربيّة. كان الملك جالساً على العرش وكان أهل الديوان والأمراء والوزراء وكلّ في مكانه حسب المراتب. ووقف الشاعر وبدأ في إنشاد قصيدته. فكان الملك يهزّ رأسه لكلّ مقام يقتضي الاستحسان، ويدهش لكلّ مقام يقتضي التعجّب، ويلتفت حيث يكون المقام محلاً للتواضع. فاحتار أهل الديوان: إنّ ملكنا لايعرف كلمة عربيّة، فكيف صدرت عنه حركة رأسه المناسبة في المجلس، اللهمّ إلا أن يكون عالماً بالعربيّة وقد أخفى ذلك عنّا سنين. فيا ويلنا، لو كانت قد صدرت منّا قلّة الأدب بالعربيّة.

وكان للملك غلام خاصّ. فاجتمع أهل الديوان وأعطوه حصاناً وبغلاً ومالاً وتعهّدوا له بأشياء أخرى بعد قولهم: هذا لكي تخبرنا بهذه الحالة، وهل الملك يعرف العربيّة أم لا. فإذا لم يكن يعرف كيف كان يحرّك رأسه في المحلّ المناسب؟ أهو من الكرامات؟ أهو من الإلهام ؟ ووجد الغلام فرصته أثناء الصيد عندما رأى الملك سعيداً بما قنص من صيد كثير فسأله. ضحك الملك وقال: إنّي والله لاأعرف العربيّة، أمّا ماكان من اهتزاز رأسي للاستحسان فلأنّ قصد الشاعر من هذه القصيدة معروف.

وهكذا علم أنّ الأصل هو المقصود، وتلك القصيدة كانت فرعاً على المقصود، بحيث إذا لم يكن ذلك المقصود، لم تقل هذه القصيدة " [50].

- وفي موضع آخر يريد مولانا القول إنّ تنخّل العلوم الذي عبّر عنه بالفارسيّة بشقّ الشعرة والذي لاينتهي بمعرفة مقام الإنسان ودوره في العالم، دليل على عدم الاكتراث بالدين وأنّه يورث الغرور والانخداع ؛ فيقول: " قيل إنّ ملكاً سلّم ابنه لجماعة من أهل الفنّ ليعلّموه علم النجوم والرّمل وما إلى ذلك حتّى يصير أستاذاً، مع

50 فيه مافيه، ص 22

كونه في غاية البلاهة والبلادة. وأراد الملك يوماً أن يختبر ابنه، فأطبق يده على خاتم وقال له: تعال، نبّئني بما في يدي.

قال: إنّ مامعك مستدير أصفر، مجوّف.

قال: مادمت قد ذكرت أوصافه صحيحة، فاحكم أيّ شيء هو.

قال: ينبغي أن يكون غربالاً.

قال: إذا كنت نظراً لقوّة التحصيل والعلم قد ذكرت هذه الأوصاف الدقيقة المحيّرة كلّها، فكيف يغيب عنك أنّ الغربال لايحتوى في اليد ؟

والآن أيضاً، فإنّ علماء الزمان قد تنخّلوا العلوم وحذقوا من غيرها مالا يتعلّق بهم وتمّت لهم الإحاطة الكلّيّة بذلك. أم المهمّ والأقرب إلى العالم من غيره، وهو نفسه فإنّه لايعرف نفسه. إنّه يحكم على كلّ شيء بالحلّ والحرمة، ويجيز هذا ولايجيز ذلك ويحرّم هذا ويحلّل ذلك. ولاخبر له عن نفسه أهي حلال أم حرام، جائزة أم غير جائزة، طاهرة أم غير طاهرة " [51]

- و يقول مبيّناً أحوال الذين يعدّون الطاعات والعبادات متاعاً للبيع وسلعة يعرضونها على الحقّ مساومة لتحقيق مطالبهم فيمنّون على الله بها ويفتخرون على الخلق بذلك، مع أنّ المنّة لله في أن وفّقهم إلى الطاعة حيث يقول ((لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)) [52]:

51 فيه مافيه، ص17.

52 آل عمران: 164.

" فقد أحد الناس حماره. فصام ثلاثة أيّام على نيّة أن يجد الحمار. وبعد ثلاثة أيّـــام وجده ميتاً، فتألّم، ورفع وجهه إلى السماء وقال: لاكنت رجلاً إن لم أعوّض هذه الأيّام الثلاثة فآكل عليك ستّة من رمضان. أيرضيك هذا ؟ " [53].

وكما سبق القول، قد تكون الحكاية حقيقيّة كما جاء في قوله: " ذهب درويش إلى ملك، فقال له الملك: ياأيها الزاهد...

قال: إنما الزاهد أنت.

قال: كيف أكون زاهداً والدنيا جميعها لي ؟

قال: كلّا إنك ترى العكس. فالدنيا والأخرى والمملكة جميعها لي وقد أخذت العالم، أما أنت فقد قنعت بلقمة وخرقة " [54].

فهذا الدرويش بحسب بعض الروايات هو الفضيل بن عياض، من أكـــابر الـــصوفية المشهورين بالزهد والتقوى، وكان معاصراً لهارون الرشيد. وعندما قدّموه إلى الخليفة بوصفه أزهد الناس، سأله الخليفة: أهناك في الدنيا أزهد منك ؟ قال: نعم، الخليفة أزهد منّي. فقال الخليفة: كيف يكون هذا ؟ قال: لأنّني زهدت في الدنيا وأنت زهـــدت فـــي الآخرة، مع أنّ الدنيا فانية والآخرة باقية. وقيل إنّ هارون الرشيد تأثّر بهـــذا الكـــلام وبكى، ولم يتجاوز تأثّره أكثر من ذلك. وقد روى بعضهم مثل سنائي [55] هذه الحكاية مع قليل من الاختلاف في آثارهم.

53 فيه مافيه، ص 68.

54 فيه مافيه، ص19.

55 تعليقات حديقة الحقيقة، جمع وتأليف مدرّس رضوى، انتشارات مؤســـسه ى مطبوعـــات علمـــى، طهران، (بدون تاريخ).

وهكذا نستنتج من الحكايات السابقة أنّ محاولة مولانا تطبيق مقالات الصوفيّة مع معاني القرآن تجعلنا ندرك أنّ الكتاب ليس ملتزماً فقط ببيان حقائق تعاليم الصوفيّة العمليّة وأسرارها وتفسير رموز التصوّف العمليّ، بل إنّ مولانا استخدمه لمعنى خاصّ أو جديد ليكون هذا التصوّف خالياً من الصعوبة عند المستمع غير المطّلع ؛ فالاستدلال بمضمون أخبار الصوفيّة ورواياتهم وماجاء به من بعض الأخبار والأقوال مرتبط بنحو ما مع حديث الرسول. ولابدّ من الإشارة إلى أنّ المعارف المنقولة عن المشايخ الصوفيّة ومقالاتهم ومقاماتهم كانت موضع طعن العلماء القشريّة و العرفاء المتشرّعة [56] لكن حين دعّمت بالنصّ القرآنيّ ورجع في تفسيرها إلى القرآن كانوا ملزمين بقبولها.

4- استخدام التشبيه و القياس العقليّ:

استخدم مولانا التمثيل والقياس وهما من خصائص السبك المنبري الذي يحتاج إليه الواعظ في إقناع العوام وإرشاد الأشخاص الذين يتعامل معهم وإيضاح الفكرة المجرّدة في أذهانهم ، ويفصل مولانا هذه القياسات التمثيليّة عن الظاهر والهيئة التعليميّة، ويخرجها بصورة يجعل فيها المخاطب يرى مصداق هذه التمثيلات بوضوح ويخطّئ ما يتوهّمه ويصل إلى مراد المتكلّم دون أن يتنبّه إلى أنّ المتكلّم قد يرفض معتقده، والوسيلة الأساسيّة التي تجعل المتكلّم ينجح في تحقيق أمر كهذا هي ذكر الأمثال والإتيان بالأشباه والنظائر التي تجعل المخاطب يرى مايظنّه صعب التصوّر أو لايطاق قريباً من الذهن وممكناً ومحتملاً ويرفع كلّ شكّ أو ترديد في ذهنه. ومن

56 العرفاء المتشرّعة أو (عارفان متشرّع) اصطلاح أطلق على العرفاء الذين كانت أعمالهم وسلوكهم تتطابق مع ظاهر الشريعة وباطنها، أمّا العلماء القشريّة أو (علماى قشرى) فهو اسم أطلقه العرفاء على العلماء والفقهاء الذين كانوا يرون أنّهم عقبة في طريقهم والذين كان همّهم الالتزام بظاهر الدين وقشوره (على حدّ تعبيرهم).

المعلوم أنّ هذا النوع من البيان يقدّم فيه المتكلّم للمستمع أمثالاً قد لاتكون واقعيّة تماماً لكنّها تعطي تصوّراً على أنّ وقوع هذا الأمر ممكن في العالم الخارجيّ وأنّ تصوره ليس بالأمر المستحيل، فضلاً عن أنّ المخاطب والمستمع يرغبان في كشف الحقيقة.

و الاستدلال الذي يقوم على أساس التمثيل والقياسات الخطابيّة هو من لوازم البلاغة المنبريّة، ومن الأساليب الخاصّة بمجالس الوعظ والتذكير. فالمتكلّم يتحدّث عن أمر ما يبدو وقوعه ووجوده بعيداً أو ممتنعاً بالنسبة إلى المخاطب، وبذكر النظائر والأشباه يبدو ممكن االتصوّر.

يقول: "جاء ثقيل وجلس فوق يد عظيم. قال: لاتفاوت بالنسبة له. فالمصابيح سواء في الفوق أو في التحت مصابيح، وإنّما يطلب المصباح الأكبر الفوق لا لنفسه، بل لمنفعة الآخرين حتّى يكون لهم حظّ من نوره، وإلاّ حيثما كان المصباح سيّان في الأعلى أو في الأسفل، فهو مصباح وشمس أبديّة.

فإذا طلبوا جاه الدنيا ورفعتها، فغرضهم – لأنّ الخلق لا يتمتّعون بالنظر الذي يشاهدون به علوّهم – أن يتصيّدوا أهل الدنيا بحبالة الدنيا، حتى يهتدوا إلى طريق رفعة الأخرى ويقعوا في حبالة الآخرة " [57].

الثقيل في اصطلاح العرفاء تقال لمن تثقّل بجسمه التعلّقات الدنيويّة حتّى يقترب من الأرض، وبحسب تعبير القرآن ((اثّاقل إلى الأرض)) [58]ويرمز مولانا إلى ذلك بانخساف قارون في الأرض. ومثل هذا الشخص حتى ولو كان عالماً، فلأنّ نظره متوجّه إلى نفسه، فعلمه عبء عليه، بخلاف علم أهل القلوب.

57 فيه مافيه، ص 25.

58 التوبة 38.

ويقول: " إنّ لك طبيباً في داخلك، هو مزاجك الذي يدفع ويقبل. ولهذا، فإنّ طبيب الخارج يسأله عمّا أكل: كيف كان ؟ أكان خفيفاً ؟ أكان ثقيلاً ؟ ونومك كيف كان. ويحكم الطبيب الخارج حسب ما يخبر طبيب الداخل. وعليه، فالأصل في ذلك هو طبيب الداخل الذي هو المزاج. فإذا ضعف هذا الطبيب وفسد المزاج رأى الأشياء على عكسها، وأعطى أمارات معوجّة فيقول: السكّر مرّ والخلّ حلو. وإذّاك يحتاج إلى الطبيب الخارجيّ ليعينه حتّى يعود المزاج إلى وضعه الأوّل، ثمّ يعرض بعد ذلك على طبيبه ويستفتيه. وللآدميّ مثل هذا المزاج من حيث المعنى. فإذا ضعف كان كلّ ماتراه حواسه الباطنة وكلّ ما تقوله على الخلاف. والأولياء أطبّاء يساعدونه حتّى يستقيم مزاجه ويقوى قلبه ودينه: أرني الأشياء كما هي" [59].

يعتقد مولانا أنّ سلامة الجسم والروح هي الأصل، فقد صنعا بحسب الفطرة الإلهيّة، وقد وضع الله في كلّ منهما تمييز الشخص مصالحه ومضارّه، فيميّز الجسم المفيد من المضرّ وتميّز الروح الخير من الشرّ. ولكن نظراً إلى أنّ هذه الفطرة التي يعبّر عنها أحياناً بالمزاج تعرض لأسباب مختلفة، منها غلبة العادات على الفطرة، فإنّ هذا التمييز ينعدم، ويعجز الآدميّ عن درك حقيقة الأشياء كما يحدث في مرض الصفراء حيث يرى العسل مرّاً، وفي ابتلائه بصفراء الحرص على الدنيا يبدأ بالقرل: إنّ الحقيقة مرّة. فهو إذاً محتاج في مزاجه الجسمانيّ إلى طبيب البدن حتى يقف على حدود انحرافات المزاج عن الفطرة ويعيد المريض إلى مزاجه الأوّل. وفي مزاجه الروحانيّ هو محتاج إلى الأنبياء والأولياء، ليكتسب المدد منهم حتى يعود إلى فطرته الإلهيّة.

وتشبيه الأنبياء والأولياء بالطبيب من الموضوعات التي تكرّرت الإشارة إليها في آثار مولانا. ويقول: " يحكى أنّ الحقّ تعالى قال: يا عبدي لقد عرفت حاجتك بسرعة

59 فيه مافيه، ص 49-50.

حال الدعاء والتضرّع، أمّا من حيث الإجابة فستتأخّر رجاء مزيد من الضراعة فقد أعجبني لحنك وتضرّعك. هذا كما لو أنّ – على سبيل المثال – جاء مستجديان إلى باب شخص، أحدهما مطلوب ومحبوب والآخر بغيض جدّاً. فيقول ربّ الدار لغلامه: أسرع وأعط المبغوض كسرة من الخبز ولاتتوان حتّى يعجّل بالانصراف عن بابنا، أمّا الآخر المحبوب فيستمهله بوعد: إنّهم لم يخبزوا بعد فاصبر حتى ينضج الخبز" [60].

والمسألة هنا أنّ العبد المؤمن حين يشكو إلى الحضرة الإلهيّة بإخلاص ولاتتحقّق حاجته يكون السبب حبّ الله لشكواه ويمثّل ذلك بسائلين يقصدان داراً.

ويقول: " أحضروا فيلاً إلى رأس عين ليشرب فكان كلّما رأى نفسه في الماء فرّ ولم يشرب. كان يتصوّر أنّه يفرّ من آخر،لم يكن ليعلم أنّه يفرّ من نفسه.

والأخلاق السيّئة من الظلم والحسد والحرص والقسوة والكبر كلّها لأنّها فيك، فإنّك لاتتألّم، حتّى إذا ما رأيتها في غيرك تفرّ وتتألّم " [61].

فمولانا ينظر إلى الخلق على أنّهم كالماء الصافي الزلال. وبتعبير أكمل: فإنّ عالم الظاهر انعكاس لعالم الباطن. فهو يعدُّ أنّ العالم الظاهر ظهور للعالم الباطن.

ويقول:" سأل: ماالسبب في عدم الشكر... ومالذي يمنع من الشكر ؟

فأجاب الشيخ: مانع الشكر هو الطمع الصرف، وأنّ طمع (الطامع) كان أكثر ممّا وصل إليه. هذا الطمع الساذج يصل به إلى الاعتقاد بأنّه: مادام وصل إليه أقلّ ممّا رغب به قلبه، فهو موجب لعدم الشكر، غافل عن عيبه، إنّه غافل عن عيب ما تقدّم به وعن زيفه. ولاشكّ أنّ الطمع الخام كأكل الفاكهة الفجّة والخبز غير الناضج واللحم النّيء مستوجب ولاشكّ للعلّة وعدم الشكر. والواجب وقد علم بأنّه أكل مضرّاً أن

60 فيه مافيه، ص

61 فيه مافيه ص23-24.

يستفرغ. لقد ابتلاه الحقّ تعالى بعدم الشكر حتى يستفرغ ويفرغ هذا الظـــنّ الفاســـد، وحتى لاتنشأ من هذه العلّة الواحدة مئة علّة " [62]

يعدُّ مولانا الشكر أفضل النعم، لأنّ النعمة إذا لم تحقّق الهداية للمنعم عليه، فهـــي موجبة للغفلة، والغفلة موجبة لنزول البلاء.

خاتمة:

إنّ " فيه مافيه " كتاب يتمتّع بأهمّيّة كبرى بين آثار مولانا، وإنّ إلقاءه في جمـــع معدود معيّن من الخاصّة لاينفي كونه كتاباً تعليميّاً يأخذ منه كلّ شخص بقدر إدراكـــه وسعة وجوده. وربّما كان هذا هو السبب في استخدام مولانا لغة قريبة من العامّيّـــة. كما استخدم السؤال والجواب في كثير من المواضع ممّا يعطي الكتاب من حين إلـــى آخر صبغة المحاورة السقراطيّة في ساحة الفكر الـــصوفيّ ، والطريـــف أنّ الـــسؤال والجواب يتخذان في بعض الأحيان صورة القصّة التي ليس فيهـــا حـــدث ولاحركـــة فيكون ذلك وسيلة طرح المسائل وحلّها. هذا الطرز من البحث يعطي كـــلام المـــتكلّم هيجاناً وتحرّكاً بشكل بارز وفي الوقت نفسه يشرك المخاطب والمستمع أيضاً بنحو ما في بحث المتكلّم وتقريره. وهكذا يصبح الكلام أكثر حيويّة. هذه الأمور - إلى حدّ ما - أمور ناشئة من البلاغة المنبريّة، ويمكن أن نعدّ الأسلوب التعليميّ المستخدم فـــي هذا الكتاب والذي تمّ الحديث عنه في هذا البحث استمراراً لدعوة الأنبياء حيث قـــال الشاعر عبد الرحمن الجامي عن مولانا:

من چه گويم وصف آن عالي جناب..... نيست پيغمبر ولي دارد كتاب

أي:

ماذا أقول في وصف ذاك العالي الجناب.. ليس نبيّاً لكنّه ذو كتاب

62 فيه مافيه، ص 181.

المصادر والمراجع

1. -اسطرلاب حقّ (گزيده ى فيه مافيه) , انتخاب وتوضيح دكتر محمد على موحد , انتشارات سخن , تهران , 1375 هـ ش
2. -تاريخ ادب پارسى (مكتب ها , دوره ها , سبک ها وانواع ادبى)، د. تمیم دارى , مركز مطالعات فرهنگى – بين المللى , ط1 , منشورات الهدى، طهران , 1379 هـ.ش.
3. -تاريخ ادبيات ايران، د. ذبيح الله صفا، خلاصه جلد سوّم ، تلخيص از محمّد ترابى، ط 16، انتشارات فردوسى 1384 هـ.ش.
4. -تاريخ ادبيات ايران (از فردوسى تاسعدى) نيمه دوم، ادوارد براون، ترجمة غلامحسين صدرى افشار، ط 4، انتشارات مروارید، طهران، 1386 هـ.ش
5. -تعليقات حديقة الحقيقة، جمع وتأليف مدرّس رضوى، انتشارات مؤسسه ى مطبوعات علمى، طهران، (بدون تاريخ).
6. -سرّنيّ، عبد الحسين زرّين كوب، ط1، انتشارات علمى، طهران، 1364هـ.ش
7. -شمس تبريزى، محمد علي موحد، انتشارات طرح نو، طهران، 1375 هـ.ش
8. -الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، طبعة بولاق.
9. -فيه مافيه، تصحيح فروزانفر، انتشارات امير كبير، طهران، 1362 هـ.ش
10. -گزيده ى غزليات مولانا، انتخاب وتوضيح د. سيروس شميسا، ط2، انتشارات فردوس، طهران، 1383 هـ.ش

11. -گلستان، سعدي شيرازي، تصحبح: غلامحسين يوسفي، الطبعة الرابعة، نشر سهامي انتشارات خوارزمي، 1374 هـ.ش

12. -مثنوى معنوى، جلال الدين محمد مولوى رومى، الطبعة الرابعة (طبعة نيكلسون)، انتشارات طلوع، طهران، 1363 هـ.ش.

13. -مختصرى در تاريخ تحول نظم ونثر پارسى، د. ذبيح الله صفا، ط15، منشورات ققنوس، طهران، 1377 هـ.ش

14. مولانا جلال الدين، عبد الباقي گولپينارلى، ترجمة وتوضيحات جعفر سبحاني، مؤسسه ى مطالعات وتحقيقات فرهنگى، تهران، 1363 هـ.ش،

15. -مولوى نامه (مولوى چه مىگويد) جلال الدين همايى، ط 6، مؤسسه نشر هما، طهران، 1366 هـ.ش.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2010/5/24.